

سورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية

دكتور قاسم عبده قاسم
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

لا يكاد الكثيرون من عامة مثقفي الغرب اليوم يعرفون شيئا من حوادث القرن الحادى عشر الميلادى سوى صورة يغلفها الحيال للحملة الصليبية الأولى . هذه الصورة تجعل من المقاتل الصليبي آنذاك مقاتلا عملاقا ذا سترة مصفحة ، يمتطى جوادا فارها ويتبع شارة الصليب الى حيث يطارد العرب ذوى البشرة الداكنة ، وقد فروا أمامه فى جبن وتخاذل . وهكذا ، فان مصطلح « الحملة الصليبية » نفسه يشى بصورة فرسان بوسائل تلهبهم الحماسة الدينية الخالصة ، فيفارقون الأهل والوطن ليشاركوا فى الحرب المقدسة العادلة ضد أعداء الصليب (١) .

ورغم جاذبية هذه الصورة الأخاذة ، فالواقع أنه ليس هناك جانب واحد صحيح فيها ذلك أن قامة الفارس الأوربي فى أواخر القرن الحادى عشر لم تكن - فى الغالب لتزيد عن خمسة أقدام وثلاث بوصات ، وهو مستوى طول الرجل العادى فى مجتمع كان يعانى من انحطاط مستوى الطب والعلاج فضلا عن النقص العام فى التغذية (٢) ، ولم يكن أبناء طبقة

Norman F. Cantor; The medieval history, (2nd. ed). (١)

Ibid, p. 318. (٢)

الفرسان ليشندوا عن هذه القاعدة ، ضحيح أن كمية الطعام التي كان
بوسطهم الحضور عليها كانت وفيرة ولكنها كانت من نفس النوعية التي
ياكلها الفلاح المزارع في ضياعهم ، ولم تكن لديهم الفرصة لتتغير هذا
الطعام بالشكل الذي يكفل لهم التغذية الكاملة (١) . ومن ناحية أخرى
فإن فرسان الحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا السترات المصنوعة التي
لم ينتشر استخدامها سوى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي بل كانوا
يستخدمون قمصان الزرد (٢) . كما أن خيولهم كانت هزيلة بالقياس إلى
مستويات القرن الثالث عشر ، ذلك أن سلالات الحيوّل الأوربية لم تتحسن
إلا بفضل تهجينها بالسلالات العربية أثناء القرنين التاليين للحملة الأولى .
وإذا كان فرسان الحملة الصليبية الأولى وغيرهم قد حاربوا تحت زاية
الصليب ، فالحقيقة أن دوافعهم وأسبابهم لم تكن دينية حاصصة (٣) .
وأخيراً . فإن المحاربين المسلمين لم يكونوا جبناء أو متخاذلين بل إنهم كانوا
على الأقل متساوين ، من حيث البسالة والمهارة القتالية مع الفرسان
اللاتين ، ولم يكن نجاح الصليبيين المبدي راجعاً إلى تخاذلهم أو نقص
كفاءتهم القتالية ، بل إلى الضعف السياسي والتمزق الداخلي والفوضى
والمنازعات التي نشبت مخالفاً في الجسد الإسلامي آنذاك (٤) .

هذه الصورة التي تتمثلها أذهان عامة مثقفي الغرب ليست في حقيقة
أمرها إلا تراثاً تكون بفضل تلك الدعاية الدينية المحيومة التي قادتها
البابوية وأثناء الحروب الصليبية . فقد خلغ المؤرخون الغربيون الذين
عاصروا هذه الحملة هالة من الخيال الديني العاطفي التزق على صورة المقاتل
الصليبي ، ومن خلال ضبابية الدعاية ، والحرافات والحزعلات التي شاعت

(١) Sidney Painter, A hist. of the Middle Ages, Mcmillan, (١)
England 195), pp. 118-22.

(٢) عن تسليح الفارس الصليبي انظر :

A.V.B. Norman, The Medieval Solider, (New York 1971) pp. (٣)
Joshua Prawer The world of the Crusaders, Oudrange books.
New York, 1972) pp. 121-32.

(٤) عن أسباب الحملة الأولى انظر :

Edward Peters, The First Crusade, The chronicle of Charter and
other source materials, (The University of Pennsylvania press
1971), pp. xi-xxii; Joshua Prawer, op. cit., pp. 14-22; Horris Bishop.
The Penguin Book of the Middle Ages, (1971), pp. 103-108.

انظر أيضاً سعيد عاشور ، الحركة الصليبية (مكتبة الانجلو المصرية ، ط .
ثانية ١٩٧١) ج ١ ، ص ٢٧ - ص ٤٢ . وكذلك جوزيف نسيم ، العرب والروم
اللاتين في الحرب الصليبية الأولى (دار المعارف) ١٩٦٣ - ص ١٤٦ - ص ١٥٢ .

أنذاك برزت صورة الفارس القديس لتحتل مكانة هامة في وجدان الغرب
فقد كان ذلك الفارس هو أداة الرب التي يستخدمها لتنفيذ إرادته (١) .

وهكذا نجد أنفسنا بالضرورة في مواجهة سؤال يطرح نفسه بالحاج
عن طبيعة الصورة التي رسمتها المصادر العربية للمقاتل الصليبي . هذا
السؤال هو محور هذه الدراسة التي تحاول أن تجد الإجابة المناسبة .

ولدينا وصف للصليبيين رسمته كلمات «العماد الكاتب الأصفهاني»
- الذي كان شاهد عيان لمعظم المعارك التي خاضها صلاح الدين الأيوبي
وآلف كتابه بمناسبة استيلائه على بيت المقدس - وهو وصف يكاد يكون
تجسيذا لرؤية المصادر العربية عموما في ذلك الدور المبكر من أدوار
الصراع ضد الصليبيين ، فهو يقول (٢) :

«... والكفار قد خشنت عرائكهم ، واستعت ممالكهم ... وقاتلوا
جندا ورعية ، واستباحوا الأنفس متورعين ، فلا ترى أعجب من أن ترى
استباحة ورعية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وأمدهم في طغيانهم
يعمهمون ، ورفضوا التكليفات ، فلا ينزع الحديد لوضوح ولا مسح . شقرا
كأنما لفحت النار وجوههم ، وهم فيها كالحون ، زرقا كأنما عيونهم من
حديدهم ، فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قلوبهم ،
ونقلها الى غروبهم ، وعذب بهم لما يريد من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهنم
في فحم ذنوبهم . تستعيز المردة من مردتهم ، ويدعى بالنار للعون على
الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ ، جهنميون كلامهم شرر ، وأنفاسهم
شواظ ... خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة ... »

هذه الصورة التي ترسمها كلمات العماد الأصفهاني المنمقة وعباراته
المزخرفة ، تجعل من الصليبي **عدوا كافرا** ، كما تصمه بالقسوة وجمود
العاطفة الى حد الوحشية ، فقد نزع الله من قلوب المقاتلين الصليبيين الرقة ،
وخلق الناس من طين وخلقهم من حجارة . كما أن هذا **العدو الكافر**
القاسي ، يعيش في مستوى حضارى متواضع أيضا .

وبوسعنا أن نجد العذر للعماد الكاتب ، وغيره ، في وصم الشخصية
الصليبية بالوحشية والقسوة ، فعلى الرغم من أن القسوة في معاملة العدو

(١) سميح عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ - ص ٥٨ .

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى في الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبح ،
الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥) ، ص ٥١ .

كانت سمة من سمات ذلك العصر ، فإن ما ارتكبه الصليبيون من أهوال كان يتسم بالوحشية الشديدة والقسوة حتى بمقاييس تلك العصور .
فإن الفظائع التي اقترفها الصليبيون في انطاكية سنة ٤٩٦ هـ (١٠٩٨ م) ، ومعرة النعمان والبارة في العام التالي (١) . ثم بعد سقوط مدينة بيت المقدس بأيديهم رغم الأمان الذي منحوه للحامية الفاطمية (٢) . أو المذبحة التي ارتكبتها « ريتشارد قلب الأسد » وجنوده ضد أهالي عكا ، على الرغم من الأمان الذي بذله لهم سنة ٥٨٧ هجرية (١١٩١ م) (٣) أثناء معارك الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة والتي جردها الغرب ، استجابة للبابوية ، بعد سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين الأيوبي .

وهناك أمثلة كثيرة في صفحات المصادر التاريخية العربية (٤) يمكن أن تبرز صفة القسوة والوحشية التي نعت بها العماد الكاتب المقاتل الصليبي . ومن الطبيعي أن تجد هذه التصرفات الهمجية التي قام بها

(١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٤) ج ٢ ، ص ١٢٢ - ص ١٢٣ . ويذكر أيضا (ص ١٤٢) أن الصليبيون دخلوا معرة النعمان بالأمان ، وقضوا الليل بها وهم يسكنون من روع أهلها ويطمئنونهم حتى إذا أصبح الصبح اخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، كما أحرقوا سور البلد ومساجده . انظر أيضا ابن القلانص : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ١٣٦ .

(٢) يذكر ابن القلاص أن الصليبيين قتلوا أعدادا هائلة في بيت المقدس كما جمعوا اليهود في كنيسة وأحرقوها عليهم (ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٧) . وقد اعترف المؤرخون اللاتين المرافقون للحملة بالفظائع التي ارتكبتها الصليبيون ، إذ يقول فلوشير دي شارتر Flucher de charter على سبيل المثال إن الصليبيين أخذوا يفتشون أجساد القتلى من المسلمين بحثا عن الذهب والفضة ثم أخذوا يجمعون هذه الأجساد في أكوام كبيرة يحرقونها حتى يسهل عليهم العثور على ما يريدون في الرماد . انظر الترجمة الانجليزية لكتابه في Edward Peters, The First Crusads pp. 77-ff. انظر أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،

ج ١ ، ص ٢٤٣ - ص ٢٤٥ ، وكذلك Runciman, op. cit., Vol. 1, pp. 286-88. (٣) ابن شداد . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال) ص ١٧٤ .

(٤) ابن القلانص : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ - ص ١٣٧ ، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار تحقيق فيليب حتى) ص ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٧ - ٩٨ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ ، ص ١١٧ ، العماد الاصفهاني : الفتح القسي : ص ٢٨٦ .

الصليبيون مبدعها في سطور المذونات التاريخية العربية . ويقدم لنا أسامة بن منقذ مثلاً فوجياً عن مدى قسوة الصليبي ، فيذكر أن أحد الفرسان المسلمين وقع أسيراً في يد جنود تنكرد Tancrede أمير انطاكية وهو يسميه دنكري - وتفنن الصليبيون في تعذيب هذا الفارس ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ولكن تنكرد أمرهم بأن يبقوا عينه اليمنى حتى إذا حمل ترسه لا يرى شيئاً (١) .

هذه القسوة والوحشية التي تميز بها المقاتل الصليبي في الأدوار الأولى من الحروب الصليبية هي في حقيقة الأمر تعبير عن المستوى الحضاري الذي عاشه مجتمع أوربا في تلك المرحلة التي شهدت اكتمال ملامح حضارة العصور الوسطى في الغرب ، فأولئك المقاتلون هم أحفاد أبناء القبايل الجرمانية التي أخذت تطرق حدود عالم البحر المتوسط منذ وقت مبكر ، كما أنهم كانوا أفراساً للمجتمع ما يزال في طور الفتوة والحيوية المتبهقة .

ويهمنا أن نتعرض لصفة « الكافر » التي نعتت بها المصادر التاريخية العربية المقاتل الصليبي . والحقيقة أن هذه المصادر - بصفة عامة - تتعامل مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية « عدائية عدوانية » من جهة ، وباعتبارها شخصية « كافرة » من جهة ثانية . وتتجسد هذه الحقيقة واضحة جلية من خلال العبارات التي ترد كثيراً في ثنايا هذه المصادر ، والتي تصف الصليبيين « بالكفار » تارة وبأنهم « العدو المخدول » تارة ثانية ، وبأنهم « الأفرنج لعنهم الله » تارة ثالثة (٢) .

ومن الطبيعي تماماً أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية من منطلق عدائي ، وهي في هذا تعكس المشاعر التي خلقها العدو للصليبي في وجدان الناس في العالم الإسلامي . حقيقة

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٦٧ - ص ٦٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ص ١٢٣ ، ابن التلاني : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٧ . أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، صفحات ١٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٥ - ١١٤ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ - صفحات ٧١ - ٧٢ - ١٥٤ - ج ١١ ، ص ١٤ ، أبو شامة : الروضتين ، صفحات ٥٧ - ٥٨ - ٨٩ - ٩٠ - ابن شداد : النوادر السلطانية صفحات ٢٩ - ٣٨ - ٤٨ - ٦٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٢٠ - ١٧٤ - ١٧٨ - ٢٣٦ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، صفحات ٧٢ - ٩٣ - ١٢٦ - ١٦٠ . والحدید بالذکر أن ابن جبير في رحلته (تحقيق د. حسين نصار) يردف دائماً اسم كل مدينة صليبية بعبارة « دمرها الله » . انظر رحلة ابن جبير ، ص ٢٩١ ، ص ٢٩٤ .

أن القرآن الكريم يضع السيد المسيح عليه السلام في مرتبة سامية ، كما أن على المسلم أن يعترف بأن المسيح من الرسل والأنبياء ، الذين أرسلهم الله لهداية البشر ، كجزء من إيمانه بالإسلام ، إلا أن موقف المصادر التاريخية العربية العدائي من الشخصية الصليبية وتكفيرها موقف سياسي وليس موقفا دينيا . لقد كانت الحروب الصليبية حربا كآية حرب أخرى رغم أنها تسربت بمسوح الدين فقد جاء الصليبيون من الغرب الكاثوليكي لميشنوا حربا عدوانية على ديار الاسلام . وحين وصلت أنباء الحملة الى العالم الاسلامي لأول مرة « ٠٠ قلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاشتهارها ٠٠٠ ، فشرع في الجمع والاحتشاد ، واقامة مفروض الجهاد ٠٠٠ » (١) . وكان لابد من مقاومة الصليبيين تحت راية الجهاد . وليس من المعقول أو المنطقي أن يكون الجهاد ضد من لا يعتبره المسلمون عدوا ككافرا . فضلا عن أن البابوية في المغرب الأوربي قد رفعت - منذ البداية - شعار الحرب المقدسة ضد المسلمين « الكفرة » (٢) . وهكذا تبدو النظرة التي تتعامل بها المصادر التاريخية العربية مع الصليبي ، باعتباره عدوا كافرا ، متوافقة مع منطق ذلك العصر الى حد بعيد .

بيد أنه يجدر بنا أن نشير الى أن هذه المصادر ، في تعاملها مع الصليبي كعدو كافر ، لم تخل من السمة الموضوعية التي افتقرت اليها المصادر اللاتينية التي تتحدث عن تلك الفترة (٣) . فكثيرا ما نلاحظ أن

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٤ .

(٢) أنظر على سبيل المثال خطبة البابا أوربان الثاني في كلير مونت سنة ١٠٩٥ ،

والتي وصف فيها المسلمين بالكفار والاعداء (Edward Peters, the First Crusade, pp. 1-16).

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يورد الترجمة الإنجليزية الكاملة لنصوص خمس روايات عما تم في كلير مونت ، وهي رواية «روبرت الراهب» الذي يحتمل أنه كان من شهود العيان في كلير مونت ، وقد ذكر مائمه « .. هذه المدينة المقدسة (الورشليم) ، التي تحتل مكان القلب من العالم ، أسيرة الآن في أيدي أعداء المسيح ، وخاضعة لأولئك الذين لا يعرفون الله ... » والمؤرخ المجهول صاحب اعمال الفرنجة Gesta Francorum الذي رافق الحملة الاولى وجاء فيها «... من يريد الخلاص لروحه لا يجب أن يترد في السير على طريق السيد ، وإذا كان يفتقر الى المال ، فإن الرحمة الإلهية سوف تمنحه كفايته .. » . أنظر رواية «بلدريك كبير أساقفة دول

Baldric of Dol ورواية « جيبيرت النوحنتي Guibert of Nogent » أنظر كذلك : Morris Bishop, op. cit., p. 111.

وأيضا : جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٥٩ .

(٣) أنظر تحليل الدكتور جوزيف نسيم للمصادر اللاتينية لتاريخ الحروب الصليبية

في المرجع السابق ص ٣ - ص ١٧ .

المؤرخ المسلم يحترم في عدوه صفات الشجاعة والبسالة والقدرة القتالية ،
والمناورة في ميدان القتال ، فضلا عن جلده وقوة تحمله .

ولعل الوصف الذي يقدمه لنا « أسامة بن منقذ » في هذا الصدد
يرسم لنا صورة غاية في الوضوح والتركيز ، اذ يقول : « . . . سبحان
الحالق الباري اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبح الله تعالى وقده ، ورأى
فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير . . . » (١) . وسوف لنا أسامه في
أماكن متفرقة من كتابه ، أو مذكراته ، عددا من الأمثلة الدالة على شجاعة
المقاتل الصليبي وجسارته اذ يروى لنا قصة فارس صليبي اشتهر بين
المسلمين والصليبيين على السواء ببسالته ، وكيف أن هذا الفارس استطاع
أن يهزم بمفرده أربعة من فرسان المسلمين . كما يحكى عن فارس آخر
حملته شجاعته وحماسته على مهاجمة فرقة كاملة من الجيش الاسلامي ،
وعلى الرغم من أن فرسه قتل أثناء المعركة ، فانه ظل يقاتل راجلا ، وهو
يتقهقر حتى تمكن من اللحاق برفاقه وقد نالت الجراح من كل مكان في
جسده (٢) . ويبدى « أسامة بن منقذ » اعجابه الشديد بهذا الفارس
الشجاع الذي ذاع صيته بين المسلمين والصليبيين على السواء ، ويقدم أسامه
مثالا ثالثا على شجاعة بعض الفرسان الصليبيين فيما رواه عن أن « أحد
شياطينهم » - على حد تعبيره - قد استطاع أن يستولى بمفرده على مغارة
كان فيها بعض المسلمين فقد كانت المغارة معلقة في الجبل وقد احتوى بها
بعض المسلمين ، ونزل اليهم هذا الصليبي في صندوق ربطه رفاقه
بسلاسل الحديد فتمكن من الاستيلاء على المغارة وأسر من بها (٣) .

والحقيقة أن مذكرات « أسامة بن منقذ » التي تتناول أخبار الحروب
الصليبية في تلك الفترة على قدر كبير من الأهمية لأنها عبارة عن ملاحظات
شخصية نتيجة لاحتكاك كاتبها بالصليبيين احتكاكا مباشرا ، فقد آخى
الصليبيين زمن السلم وعقد الصداقات معهم ، وقاتلهم وقت الحرب ، ثم
دون ملاحظاته الذكية القيمة في أسلوب يتميز بالموضوعية ودقة الملاحظة .

أما ابن شداد فيتحدث عن قوة احتمالهم في اعجاب قائلا : « . . . فانظر
الى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع . . . » (٤) .

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٨ - ص ١٨٠ .

كما يتحدث عن ريتشارد قلب الأسد - ميت انجلترا وأحد زعماء الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة - بقوله : « ٠٠٠ وكان الملعون شجاعا بأسلا ، صاحب رأى فى الحرب ، وثبت بين يدى العسكر ٠٠ » (١) كما يقول عنه فى مكان آخر من كتابه « ٠٠٠ وهذا الانكثار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ٠٠٠ » (٢) .

كذلك نتحدث بعض المصادر العربية الأخرى عن بعض فرسان الصليبيين ومقاتليهم بالفروسية والشجاعة والبسالة وشدة المراس (٣) .

وهكذا نجد أن المصادر التاريخية العربية اسرمت فى المقاتل الصليبي شجاعته وبسالته ، وقوة تحمله ، ولم يجد المؤرخون المسلمون حرجا فى ذكر الأمثلة الدالة على هذه الشجاعة على الرغم من الحرب القائمة والصراع الدائر بين الطرفين .

وفى تصورنا أنه يمكن تفسير هذه الشجاعة التى تميز بها المقاتل الصليبي ، فى ضوء خلفيته الاجتماعية من جهة ، والتدين العاطفى الذى حكم سلوكه من جهة ثانية ، فضلا عن الظروف المعادية التى عاش فى اطارها الصليبي على أرض الشام من جهة ثالثة .

فقد كانت التنشئة العسكرية لفرسان العصور الوسطى تغرس فيهم صفات الشجاعة والاقدام وقوة التحمل ، كما تنمى فيهم روح الولاء . ولما كانت الحرب هى الحرفة الأساسية للفراس ، فانه كان يعد منذ نعومة أظافره لهذه المهمة . بيد أن الفرسان - كطبقة اجتماعية آنذاك - كانوا يتوارثون هذه الحرفة ، اذ لم يكن يسمح لأحد بالانخراط فى سلك الفرسان ما لم يكن ابنا لأحد الفرسان ، أو سبيلا لفراس من عائلة أبيه على الأقل (٤) .

وفى القرن الحادى عشر - الذى حدثت الحملة الصليبية قرب نهايته كان الفراس يتلقى تدريبيه منذ الطفولة على فنون القتال واستخدام مختلف

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١ ، أبو شامة ، الروستين -

ص ٥٨ .

A.V.B. Norman, The Medieval Soldier, p. 142.

(٤)

الاسلحة التي عرفها ذلك العصر ، مثل السيف والخربة والبلطه ... وغيرها . كما كان يتدرب على كيفية استخدام درعه والسيطرة على فرسه (١) . وتفصيل ذلك أن الطفل في سن السابعة كان يؤخذ بعيدا عن منزله ، خوفا من أن يفسده تدليل الأبوين ، ويرسل الى بلاط أحد السادة الاقطاعيين الذين تربطهم بأسرته علاقة ودية من نوع ما . وحين يبلغ الرابعة عشرة من عمره يوكل اليه أمر العناية بخيول سيده الاقطاعي وأسلحته ، كما يقوم بخدمته على المائدة . وعندما يقترب من سن العشرين يكون قد آتم تدريبه على أسلحة الفرسان ومعداتهم ، أى يكون مؤهلا للانخراط فى سلك هذه الطبقة . فيمنحه سيده الاقطاعي سلاحا وفرسا ودرعا ، ويتم تصميبه فارسا فى حفل ذى مراسم محددة . وعندها يصير الفارس مكلفا بالقتال تحت راية سيده الاقطاعي فى الحروب التى يخوضها . والتى حاولت البابوية ، وبعض الأمراء الحد منها بالدعوة الى «هدنة الله» ، وسلام الله (٢) .

والى جانب هذه الخلفية الاجتماعية التى نشأ الفارس الصليبي فى رحابها يمكننا أن نفسر هذه الشجاعة فى ضوء الحقيقة القائلة ان هذا الفارس كان أسير عاطفة دينية جياشة ، ولو أنها مشوبة بالامتناد فى الحرافات والغيبيات بفعل سيطرة البابوية والكنيسة على الحياة الثقافية فى أوربا آنذاك . ويرى الدكتور جوزيف نسيم أن الحروب الصليبية « كانت تمثل روح العالم الغربى الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلا صادقا فى ناحيتين هامتين هما ناحية الدين وناحية الحرب ... وهكذا عاش الفرد الوسيط داخل الدائرة الضيقة المغلقة التى وضعته فيها الكنيسة لا حول له ولا طول ، وغليه السمع والطاعة دون جدل أو مناقشة » (٣) . وكان الفارس فى هذا الغرب الأوربي مكلفا بالدفاع عن

Ibid, p. 143.

(١)

(٢) عن تفاصيل حياة الفروسية فى المجتمع الانطاقي انظر :

Sidney Painter, I hist. of the Middle Ages, pp. 118-22 Canter. The Med. hist., p. 235; Bishop, The Pengu, book of The Middle Ages, pp. 58-86; Norman, op. cit., pp. 141-156.

انظر أيضا : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى (الانجلو المصرية سنة

١٩٧٦) ج ٢ ، ص ٢٧٤ - ص ٢٧٥ .

(٣) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٣ - ص ٢٤ ، ص ٥٢ - ص ٥٩ حيث يناقش تأثير التيارات الدينية على مفاهيم العصر ، وكيف أن البابوية ورجالها كانوا يروجون للنبروات والرؤى التى تحمل الطابع الاسطوري كلما خبت الحماسة للحركة الصليبية .

الكنيسة وخدمة أهدافها . ولعل مراجعة نص الخطبة المنسوبة الى البابا أوربان الثاني والكلمات التي حاطب بها فرسان فرنسا تكشف عن مدى فعالية الدعاية البابوية في هذه الأوساط (١) .

وهناك من الأمثلة ما يؤكد أن خضوع الصليبيين لهذه الدعاية الدينية ، وما يعتمل في نفوسهم من مشاعر تولدت عنها ، كانت تدفع بهم من أحط حالات اليأس الى الصمود والاستبسال في القتال على نحو ما حدث بعد استيلاء قوات الحملة المعروفة بالحملة الصليبية الأولى على مدينة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) (٢) . ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين بعد أن استولوا على مدينة أنطاكية ، وصلت قوات المسلمين بقيادة « كريبوقا » ، ووقع الصليبيون في الحصار ، وظلوا على هذا الوضع اثني عشر يوما يعانون فيها من قلة المؤن والأقوات ، « ٠٠٠ وتقوت الأقوياء منهم بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وأوراق الشجر ، فلما رأوا ذلك أرسلوا الى كريبوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطيهم ما طلبوا ، وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفرى والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية ، وهو المقدم عليهم ، وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال (٣) . فقال لهم ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى فى أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فانكم تظفرون ، وان لم تجدوها فالهلاك محقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفى أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم أبشروا بالظفر ٠٠ » ودبت الحماسة فى صدور الصليبيين المحصورين داخل أسوار

Edward Peters, The First Crusade; pp. 2-5.

(١)

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١١٢٢ : ص ١٢٦ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، حوادث سنة ٤٩١ هـ . وانظر كذلك

Runciman, A history of the Crusades Vol. 1 pp. 213-35.

أيضا : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٠١ - ص ٢٠٥ .

(٣) هو المندوب البابوى أدهمار ، وكان المشتركون فى معركة أنطاكية هم : بوهيموند (بيمنت) ودوبرت أمير فلاندرز وريموند (القمص صاحب الرها) وجود فرى (كند فرى) .. وسيرهما - أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٩٠

Runciman, op. cit., vol. 1 pp. 206.

أنطاكية وأخذوا يتأهبون للخروج الى قتال قوات كربوقا التي كانت قد وصلت لنجدة المدينة . وحين خرج الصليبيون من انطاكية استطاعوا أن يلحقوا الهزيمة بالقوات الاسلامية التي كانت الخلافات والمنارعات بين قادتها قد اودت بروحها القتالية (١) .

وتكشف هذه الرواية التي أوردها ابن الأثير بوضوح كيف أن هذه الحيلة التي لعبت على أوتار عاطفة الصليبيين الدينية كانت عاملا حاسما في أخراجهم من المأزق الذي كاد أن يدفعهم الى الاستسلام . والجدير بالذكر ان المصادر اللاتينية تتحدث عن هذه الحادثة في تفصيل كبير يكشف عن اعتقاد مؤلفيها الراسخ في صحة هذه الواقعة .

ومن ناحية أخرى يلاحظ المؤرخ ابن شداد مدى خضوع المقاتل الصليبي للدعاية البابوية بعد سقوط مدينة بيت المقدس في أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٣ هـ وكيف أن هذه الدعاية قامت على أساس صورة كبيرة تمثل مدينة القدس « ٠٠٠ » وبها كنيسة القيامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وصور القبر وصور عليه فارسا مسلما قد وطئ قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر « ٠٠٠ » ويستمر ابن شداد فيقول « ٠٠٠ » وأظهرت هذه الورقة في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة ، وعليهم المسوحة وينادون بالويل والثبور « ٠٠٠ » ثم يقدم لنا ملاحظة ذكية عن نوعية تدين الصليبي فيقول « ٠٠٠ » وللصور عمل في قلوبهم ٠٠٠ » (٢) كما أنه حين يتحدث عن المفاوضات بين ريتشارد قلب الأسد والعادل أخى صلاح الدين يوضح كيف كان اهتمام الصليبيين عظيما ببيت المقدس وصليب الصليب (٣) .

كما أن العمد الأصقها نى يوضح لنا - رغم زخرفة أسلوبه - صورة

(١) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٠٣ ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
والجدير بالذكر أن المؤرخ المجهول ، الذى كان من شهود العيان يذكر ان قسيسا جاء الى القادة الصليبيين المحاصرين فى أنطاكية وأخبرهم بآ الرؤية التى تحدثت عن هذه الحرب المقدسة . انظر نص الترجمة الانجليزية لروايته ، وكذلك رواية «ريموند من أجويليه»

E. Peters, The first Crusade, pp. 176-85 Raymond d'Aguiliers.

ويلكر الدكتور جوزيف نسيم ان اسم هذا الرجل الفرنجى «بطرس برثولماوس»

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٦ - ص ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

واضحة عن المعارك حول بيت المقدس ، وكيف أن تدين المقاتل الصليبي كان يدفعه الى الاستبسال في القتال دفاعا عن المدينة ضد قوات صلاح الدين (١) .

وتقدم لنا المصادر العربية المزيد من الأمثلة التي تكشف عن أن العزف على أوتار العاطفة الدينية كانت تدفع المقاتل الصليبي الى اظهار الشجاعة والاستماتة في القتال ، وهو ما يدل على مدى خضوع المقاتل الصليبي لمؤثرات الدعاية البابوية المحمومة التي واكبت أحداث الحروب الصليبية (٢) .

على أننا يجب أن نلاحظ أنه اذا كانت شجاعة المقاتل الصليبي التي استحوذت على انتباه المصادر العربية ليست الا نتاج خلفيته الاجتماعية، والمفاهيم الدينية التي حكمت تصرفات الناس في تلك المرحلة من العصور الوسطى ، فان هذا المقاتل ، من ناحية أخرى ، كان ممثلا لحضارة ما تزال في طور شبابها وحيويتها ، ومن ثم فانه كان تعبيرا عن واقع المجتمع الذي شهد اكتمال ملامح الحضارة الوسيطة (٣) فقد كانت الحروب الصليبية في حقيقة أمرها توضيحا - ولو أنه توضيح درامي له مغزاه للجوانب الرئيسية في حياة الناس في العصور الوسطى ، كما انها - من ناحية أخرى ليست سوى عامل سببي من عوامل التغيير التاريخي آنذاك . على أية حال ، فانه يمكن القول بأن الحروب الصليبية تمثل فترة تاريخية تجلت فيها خصائص وسمات المجتمع الأوربي واضحة تماما ، ذلك أن تلك الحروب تكشف عن أهل العصور الوسطى في أفضل حالاتهم وأكثرها سوءا . وهذا هو ما يجعل هذه المرحلة جديرة بالدراسة من زاوية غير تقليدية .

وفي هذا المجتمع الذي تكشف الحروب الصليبية عن سماته وخصائصه كان الفارس يحتل مكانة هامة ، انعكست على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وقد كان الفارس مكلفا بالدفاع عن الكنيسة - وبأن يدفع الظلم عن الفقراء وأن يوطد دعائم السلام في بلده أو

(١) العماد الاصفهاني ، الفتح القبي ، ص ١١٩ ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٣) ويذكر أن الصليبيين كانوا يأخذون معهم كنيسة متنقلة في تحركاتهم العسكرية . انظر أيضا ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ، صفحات ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٦ .

Cantor, The med. hist, p. 325.

(٣)

مقاطعته ، وعليه أن يريق دمه أو يضحي بروحه في سبيل الدفاع عن
أخوانه . وعلى الرغم من مثالية هذه المهمة . فإن الفارس كان مطالباً ،
بأن يقوم - على الأقل بأداء الشطر الأعظم منها . وهو الأمر الذي كان
يتطلب منه قدراً كبيراً من الشجاعة والقدرة القتالية والصبر والتحمل .
ومن ناحية أخرى اكتسب الفارس مكانته السامية في المجتمع من أهمية
وخطورة المهمة المنوطة به في هذا المجتمع (١) .

ولذا فإن المكانة الهامة التي احتلها الفارس في المجتمع الصليبي لفتت
أنظار المؤرخين المسلمين خاصة أولئك الذين شئت ظروفهم أن يتعاملوا
مع الصليبيين عن قرب ، ومن هؤلاء « أسامة بن منقذ » الذي يقول في
هذا الصدد « ١٠٠٠ والافرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس
سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمه ومنزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم
ناس الا الفرسان ، فهم أصحاب الرأي ، وهم أصحاب القضاء والحكم . »
ويقدم لنا أسامة من الأمثلة ما يؤكد ذلك ويؤكد (٢) ابن شداد ما رواه
أسامة عن أهمية الفارس الصليبي وتولييه أمر القضاء والحكم (٣) .

ومما يكشف عن مدى أهمية الفارس لدى الصليبيين مثالار قدمهما
« أسامة بن منقذ » يتحدث أحدهما عن فشل فرسان تنكرد Tencerde
في هجومهم على شيزر سنة ١١١٠ م مما جعله يوبخهم بقوله : « ١٠٠٠ أنتم
فرساني وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند
(أى مشاة) ما تقدرتون تقلعوهوم من مواضعهم ١٠٠٠ » (٤) أما المشاة
الثاني فيتعلق بأحد الأسرى من مشاة الصليبيين ، فحين طلب المسلمون
منه فدية قدرها ستمائة دينار لاطلاق سراحه سخر منهم بقوله « أنا
سرجند ديواني كل شهر ديناران . من أين لي ستمائة دينار ؟ » (٥) .

إن المقابلة بين هذين المثالين تكشف لنا بوضوح عن الفرق بين
مكانة الفارس الصليبي وما يتمتع به من رفاحية في المجتمع الصليبي
من ناحية ، وضآلة قدر المقاتل من المشاة في المجتمع نفسه من ناحية
أخرى . وهذه الحقيقة التي أدركتها المصادر العربية تتفق تماماً مع

Morris Bishop, The penguin Book of Middle Ages, p. 85. (١)

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٦٤ - ص ٦٥ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

(٤) أسامة : الاعتبار ، ص ٦٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

طبيعة الوجود الصليبي في بلاد الشام ، فهو وجود عسكري استيطاني لا يجد لنفسه أمانا في المحيط الاسلامي المعادى له سوى بتدعيم قواته القتالية التي كان الفرسان أهم دعائمها بطبيعة الحال ، وذلك لأن أمراء الصليبيين وملوكهم يغضبون كثيرا إذا قُتل فرسانهم في تحقيق مهامهم وينزلون بهم أقصى ضروب العقاب (١) .

هذه المكانة الهامة التي تبوأها الفارس في الكيان الصليبي تفرض علينا أن نتوقف قليلا أمام بنية الجيش الصليبي بوجه عام . فالواقع أن الفرسان كانوا الركيزة الأساسية في أي جيش صليبي ، بيد أنهم كانوا في الوقت نفسه قلة في هذا الجيش بسبب طبيعة تنشئة الفارس منذ الصغر من ناحية ، وكثرة تكاليف إعداد الفارس من ناحية أخرى . وكان الجيش الصليبي يتكون في العادة من مصادر ثلاثة : هي الفرسان ، والجنود المرتزقة ، ثم الرجال العاديين القادمين لحج . وكان هؤلاء يفوقون من حيث أعدادهم المصدرين الآخرين وذلك بسبب قلة تكاليف تجنيدهم ، وقلة الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها من وراء اشتراكهم في القتال . ولكن هؤلاء لم يكونوا مؤهلين للقيام بالأعمال العسكرية وهو الأمر الذي كان يترك تأثيره السلبي على أداء الجيش الصليبي بطبيعة الحال (٢) . ويشير ستيفن رنسمان - اعتمادا على تحليله لمصادر الحملة الصليبية الأولى - إلى أن نسبة الفرسان إلى المشاة في الجيش الصليبي ربما كانت نسبة واحد إلى سبعة ، وذلك إذا ما كان الجيش يضم كل القادريين على القتال (٣) . والواقع أن قوة الجيش الصليبي كانت تقاس بعدد الفرسان الذين يضمهم بين صفوفه ، بل أن نتيجة المعركة غالبا ما كانت تحسم بعد أول صدام مع الجيش المعادى إذا ما نجح الفرسان في هجومهم (٤) .

وتمدنا المصادر التاريخية العربية بطائفة من الأمثلة التي يمكن أن تساعدنا على تكوين فكرة عامة عن بنية الجيش الصليبي . فابن القلانسي يذكر في حوادث سنة ٤٩٤ هـ أن جيشا مصريا كبيرا اتجه إلى عسقلان لمحاربة الصليبيين ، ونهض إليه من الفرنج ألف فارس

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ص ٦٧ .

James A. Brundage, Medieval Canon Law and the Crusaders, (٢)
Crusader in the memoirs of Usama Ibn Munqidh (a paper delivered at the American Academy of religion, Washington), p. 8.

Runciman, A hist. of the Crusaders, vol. 1, pp. 336-41. (٣)

J. Prawer, The World of the Crusaders, p. 131. (٤)

وعشرة آلاف راجل (١) ٠٠٠ ، كما يقدم لنا ابن شداد - الذى عاصر الصراع بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبى ، والصليبيين اندين تدعمت قواتهم بوصول الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربا آنذاك وهم ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا . وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وقدم لنا وصفا شيقا للمعارك ، والأحداث التاريخية ، فضلا عن وصفه الدقيق للأسلحة وأساليب القتال - يقدم ابن شداد مثالا عن جيش الصليبيين الذى حاصر عكا ، وأستولى عليها سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، فيذكر أنه كان يتألف من ألفى فارس وثلاثين ألف راجل (٢) .

كما يقدم لنا المؤرخ ابن الأثير عددا من الأمثلة التى يمكن أن توضح سبب هذا الفرق الكبير بين الفرسان والمشاة فى الجيش الصليبي ، فهو يوضح كيف كان الصليبيون فى الشام يستعينون بمن يفد اليهم من الغرب الأوربي ، بقصد الحج الى بيت المقدس فى تدعيم قوتهم العسكرية . صميح ان بعض أولئك الحجاج كانوا من الفرسان ، بيد ان نسبتهم كانت ضئيلة . ففي حوادث سنة ٤٩٦ هجرية يذكر ابن الأثير ان بلدوين (ويسميه بغدوين) استعان بالفرنج الذين كانوا قد وصلوا من أوربا لزيارة بيت المقدس لمحاربة القوات الفاطمية فى عسقلان (٣) . كما يذكر أن ريموند (ويسميه الصنجيل وهو تحريف لعبارة Raymond de St. Angilles) نفسه بحاجة الى قوات لمساعدته استعان بمن وصل الى ميناء اللاذقية من الفرنج الذين كانوا خليطا من « ٠٠٠ التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » لحصار طرابلس سنة ٤٩٧ هـ ولكن هذه القوات فشلت فى الاستيلاء على طرابلس فسارت الى جبيل واستولت عليها ، ثم واصلت سيرها الى صور واستولت عليها أيضا (٤) . وتمدنا المصادر التاريخية العربية التى عالجت أحداث هذه الفترة بطائفة من الأمثلة المتشابهة (٥) .

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٤ - ص ١٠٥ ، انظر أيضا أبو شامة ، البروضتين ، ص ٥٧ - ص ٥٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ ، ص ١٤٣ حيث يتحدث فى حوادث سنتي ٤٩٥ هـ ، ٤٩٧ هـ عن وصول بعض السفن التى تحمل امدادات من « التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » ، ويذكر أبو شامة (الروضتين - ص ٥١ - ص ٥٢) نبأ وصول امدادات صليبية عن طريق البحر .

وهكذا نجد أن المصادر التاريخية العربية احترمت في المقاتل الوجود الصليبي الاستيطاني محيط في بشرى معادى من ناحية ثانية ، فرضت هذه الأهمية التي تمتع بها الفرسان في الجيش الصليبي بوجه عام ، كما أنها - من جهة أخرى - فرضت أسلوبا معيناً في القتال كان على الجيش أن يتبعه ، فضلا عن أنها غرست في المقاتل الصليبي صفات معينة . بيد أننا يجب أن نشير إلى أن مكانة الفرسان الاجتماعية قد انعكست أيضا على مكانتهم في الجيش (١) .

أما أسلوب القتال الذي كان الجيش الصليبي ينتهجه ، فيمكن توضيحه من خلال بعض الأمثلة التي أوردتها المصادر العربية . فابن شداد ، مثلا ، يقول « ٠٠٠ » فخرج فارسهم وراجلهم ، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في أنفسهم ، ولا خارجين عن راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلوا بعضها بعضا » (٢) . وفي كلامه عن إحدى المعارك التي جرت قبيل سقوط عكا في أيدي صليبي الحملة الثالثة يؤكد ابن شداد مرة أخرى هذه الملاحظة بقوله : « ٠٠٠ » وكان عسكر العدو المخدول قد ترتب فكانت الرجالة حوله كالسور ٠٠٠ » (٣) .

وربما يكون بوسعنا أن نستنتج من كلمات ابن شداد - وهو شاهد عيان خبر الحرب وأساليب الصليبيين في القتال بنفسه - أن أهمية الفرسان في الجيش الصليبي تركت تأثيرها على تشكيل القتال أو الزحف في الجيش الصليبي ، إذ كان الفرسان يسرون في قلب الجيش بحيث يكونون في مأمن بفضل حماية المشاة الذين يشكلون ما يشبه السور من حولهم . والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المتخصصين في التاريخ الحربي قد أشاروا إلى هذه الحقيقة التي توصلوا إليها نتيجة تحليلهم لمعارك الصليبيين (٤) . وهنا ينبغي أن نشير إلى ملاحظة هامة أبدتها « رنسمان » ، وهي أن اصطلاح « الفرسان » يجب

(١) عن الاقطاع في فلسطين زمن الحروب الصليبية ومكانة الفرسان انظر : Jonathan Riley-Smith, The Feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem 1174-1277, (Macmillan, London 1973), pp. 3-39.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٢ - ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ - ص ١٨٠ .

(٤) أنظر A.V.B. Norman, The Med. Soldier, pp. 193-5.

حيث يذكر أن الشكل التقليدي للجيش الصليبي قبيل المعركة هو أن يكون المشاة في مقدمة الجيش لتلقى صدمة الاقتحام ويصطف الفرسان خلفهم فيما يشبه الكتلة .

أن يستخدم فقط للدلالة على التحيلة الثقيلة التسليح ، وليس على كل من يمتطي صهوة جواد (١) .

وتمثلت النتيجة الأخرى ، لقلة عدد الفرسان في الجيش الصليبي . في ذلك الحذر الشديد والحيلة البالغة للدين ميزان سلوك المقاتل الصليبي . فقد كانت الجيوش الصليبية تضم أعدادا كبيرة من الحجاج والوافدين الجدد الذين يفتقرون الى الخبرة القتالية وكان طبيعيا أن يتأثر الجيش بوجود هؤلاء بين صفوفه وأن يهتم بالحفاظ على الفرسان والمقاتلين المحترفين . والواقع أن هذا العيب الدائم في الجيش الصليبي لم يكن واضحا في غمرة الانتصارات المذهلة التي أحرزتها جيوش الحملة الأولى ، ولكن الأمر تجلى واضحا حين استوعب المسلمون الصدمة الأولى ، وبدأوا تنظيم صفوفهم للدفاع ثم الهجوم فيما بعد .

على أية حال ، هذا الحذر البالغ الذي ميز سلوك المقاتل الصليبي . والذي رصدته المصادر التاريخية العربية ، يمكن تفسيره بهذا السبب ، الى جانب أسباب أخرى دينية ونفسية كما سنرى في الصفحات التالية .

وقد يبدو كلامنا عن الحذر الشديد والحيلة البالغة للذين ميزنا سلوك المقاتل الصليبي متناقضا مع ما ذكرناه من قبل عن شجاعة هذا المقاتل وقدرته القتالية . ولكن تحليل مفهوم الشجاعة عند المقاتل الصليبي ، كما يقدمه لنا أحد الباحثين الغربيين المعاصرين ، قد يساعدنا على تبرير هذا التناقض الظاهري . يقول هذا الباحث «... أن الشجاعة صفة أساسية في الفارس الصليبي ، شأنها شأن صفة الاخلاص تماما . بيد أنها صفة تدل على نشاط منظم مدروس ، فالشجاعة هنا لا تعني أن يغض الفارس بصره عن الأخطاء الماثلة ، كما أنها لا تعني التهور والاندفاع الغير مأمون العاقبة ، ولكنها في الواقع شجاعة تعني القدرة على تحديد حجم الخطر ، وتقدير مداه في هدوء ، وذون أن يدع المرء للخوف الى نفسه سبيلا ... » (٢) .

وقد تنبعت المصادر التاريخية العربية الى الحذر الذي ميز سلوك المقاتل الصليبي ، فها هو « أسامة بن منقذ » يذكر ما نصه : «... وهم ،

Runciman, A hist. of the Crusades, vol. 1, p. 337.

(١)

Show (M.R.B.), Joinville and Villehardouin chronicles of the Crusades, (Penguin classics 1973) p. 15.

(٢)

لعنهم الله ، أكبر الناس احترازا في الحرب ٠٠٠ » (١) ويسوق لنا أسامة عدة أمثلة لكي يدلل بها على صدق ملاحظته . فقد حدثت مواجهة بين مجموعة صغيرة من فرسان المسلمين - كان أسامة بينهم - وقوة كبيرة من الصليبيين ، قرب بيت جبريل في منتصف الطريق بين غزة وبيت المقدس ، « ٠٠٠ فصعدوا الى رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم وبين الرابتين فضاء وأصحابنا المنقطعون وأصحاب الجناث عبور تحتهم لا ينزل اليهم منهم فارس خفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين وما زال الافرنج وقوفا على تلك الرابية الى أن انقطع عبور أصحابنا ثم ساروا اليها فاندفعنا بين أيديهم والقتال بيننا لا يجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذه ، ثم عادوا عنا ، وقدر الله سبحانه لنا السلامة ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم كما نصرنا علينا كنا أفيناهم ٠٠٠ » .

وتقدم لنا المصادر العربية الأخرى مزيدا من الأمثلة التي تدعم الملاحظة التي أبداهها أسامة بن منقذ عن صفة الحذر البالغ في شخصية المقاتل الصليبي . من ذلك ما يذكر ابن الأثير (٢) ، وابن شدداد (٣) والعماد الكاتب الأصفهاني (٤) ، وابن القلانسي (٥) وأبو شامة (٦) . وجميع هذه الأمثلة تكشف كيف كان الصليبيون لا يدخلون معركة الا اذا كانت نتائجها مضمونة تماما ، وكيف أنهم كانوا يميلون الى القيام بعمليات عسكرية محدودة . ويبحثون باستمرار عن النصر السريع السهل متوسلين الى ذلك بالحيلة والخداع (٧) . كما توضح بعد الأمثلة كيف أن الصليبيين كانوا ، في بعض الأحيان يقتلون أسراهم خوفا من أن ينقذهم رفاقهم (٨) .

-
- (١) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٢ .
 - (٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٠٣ ، ص ١٣٩ - ج ١١ ، ص ١٤٨ .
 - (٣) ابن شدداد ، التوادر السلطانية ، ص ١٠٠ - ص ٢٠١ .
 - (٤) العماد الاصفهاني ، الفتح القدسي ، ص ٥٩ - ص ٦٠ .
 - (٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٥ - ص ١٨٦ ، ص ٢١٣ - ص ٢١٤ ، ص ٢١٧ - ص ٢٩٩ .
 - (٦) أبو شامة ، الروضتين ، ص ٥٢ .
 - (٧) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ - ص ٥٧ .
 - (٨) ابن شدداد ، التوادر ، ص ١٠١ .

ويسوق لنا المؤرخ ابن شداد مثالا واضح الدلالة على ما تميز به المقاتل الصليبي من حرص وعلى رغبته النصر السهل ، فقد حدث سنة ٥٥٨ هـ (١٥٥٢ م) أن هاجم ريتشارد قلب الأسد قافلة اسلامية كانت قادمة من مصر . وكان قد تخفى في زى أعرابي ليستطيع التعرف على القافلة ثم هاجمها بعد أن تأكد أن حراسها يعطون في نومهم واستولى عليها ، ولكنه ما لبث أن ترك غنيمته وهرب بجنوده حين سرت اشاعه بأن السلطان صلاح الدين قادم بجيشه . وحين نالوا من كذب الاشاعة وعادوا ثانية الى القافلة التي كان بعض أفرادها قد تمسكوا من الهرب (١) .

ويرى أحد المؤرخين العسكريين المحدثين انه يمكن تبرير هذا الحذر في ضوء طبيعه الوجود الصليبي في بلاد الشام . ذلك انه يرى أن الصليبيين في بلاد الشام كانوا يواجهون عدة مشاكل عسكرية تكتيكية واستراتيجية فرضت عليهم المبالغة في الحذر والحيطه ، كما أنهم كانوا يقاتلون في سبيل تحقيق أهداف محدودة ، هي الاستيلاء على بعض المناطق ذات الأهمية الدينية البالغة بالنسبة لهم ، وذلك - والكلام ما يزال للمؤرخ نفسه - فابهم أخذوا يتهجون نهجا دفاعيا في حروبهم بعد الجيل الأول (٢) .

وعلى الرغم من أن كلام سميل Smail يحمل قدرا من الحقيقة ، فإنه لا يقدم لنا التفسير الكافي لهذه الظاهرة التي لفتت انتباه المصادر العربية في سلوك المقاتل الصليبي . ذلك أنه اذا كان الحذر ضروريا بالنسبة للصليبيين ، كما يقول ، فإنه ضروري أيضا لكل الجيوش المتحاربة في كل زمان ومكان حتى لا تقع الجيوش فريسة الأخطاء التي قد تنجم عن اتخاذ قرار متسرع . والواضح أن الحذر الذي ميز سلوك المقاتل الصليبي لم يكن حذرا عاديا من ذلك النمط ، ولو كان كذلك لما احتاج الأمر من « أسامة بن منقذ » أن يستخدم عبارة يصف فيها الصليبيين بأنهم « أكبر الناس احترازا في الحرب » . فاستخدامه للكلمة الاحتراز ، ثم التأكيد عليها بما قدمه من أمثلة أيدتها المصادر العربية الأخرى ، يوحى بأن هناك عاملا نفسيا خبيثا وراء هذه الظاهرة .

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٢ - ص ٢١٤ .

(٢) R.C. Smail, Crusading Warfare (1097-1193) Cambridge university press 1967, p. 138; Mohammad K. H. Ahmed, The Crusader, p. 3.

وفى رأينا أن هذا العامل النفسى لا يرتبط بطبيعة المرحلة الدفاعية التى مر بها الوجود الصليبي فحسب ولكنه يرتبط أيضا بظروف تكوين الجيش الصليبي السابق الاشارة اليها من ناحية ، والوضع القانوني للمقاتل الصليبي فى نظر الغرب الأوربي آنذاك من ناحية ثانية ، وطبيعة الوجود الصليبي والظروف المحيطة به من ناحية ثالثة .

وبما أننا قد ناقشنا ظروف تكوين الجيش الصليبي وتأثيرها السلبي على أداء المقاتل وتصرفاته ، فانه يبقى علينا أن نناقش الوضع القانوني للمقاتل الصليبي ، ثم طبيعة الوجود الصليبي فى بلاد الشام واستجابة المسلمين للتحدى الذى فرضه هذا الوجود .

لقد كان المقاتل الصليبي من الناحية القانونية جنديا فى حرب مقدسة مما أكسبه مكانة خاصة بين أقرانه من العسكريين ، فقد كان هذا المقاتل يتمتع بمزايا تفوق تلك التى يتمتع بها أى مقاتل عادى فى أى جيش عادى . والحقيقة أن القسم الذى كان الصليبي يقطع على نفسه قبل الانضمام الى الحملة الصليبية كان يجعل منه حاجا فى رحلة حج الى بيت المقدس ومحاربا فى حملة دينية فى الوقت ذاته . أى أن الصليبي كان حاجا قطع على نفسه نذرا بأن يساهم فى الحرب المقدسة أثناء رحلة الحج ، وثوابه على ذلك أن يغفر له البابا - باعتباره الملك لمفاتيح ملكوت السماء - جميع خطايه السابقة . وفى مقابل ذلك على كل من يأخذ شارة الصليب أن يقسم على الذهاب الى بيت المقدس فاذا ما عاد دون أن يفعل ذلك فانه يعرض نفسه لخطر الحرمان البابوى (١) . وهكذا كان فشل الصليبي فى الوفاء بقسمه يعرضه للعقاب الدينى فى الوقت الذى يتعرض أيضا للعقاب المدنى المتمثل فى فقدانه لامتيازاته التى نالها بوصفه مقاتلا صليبيا ولكانته المدنية وشخصيته القانونية تبعا لذلك ، بل انه يتعرض للموت بسبب فشله الذى كان يعتبر جريمة تستوجب العقاب (٢) .

Brundage, Med. Canon Law, p. 30; Runciman, Ahist. of the Crusades, pp. 107-109; Cantor, the Med. Hist. p. 321.

أنظر أيضا نص خطبة البابا اوربان الثانى فى كلرمونت بمختلف رواياتها . Peters, The first crusad, pp. 2-15.

وعن امتيازات انصليبيين أنظر المصدر نفسه pp. 238-46.

Muhammad K. H. Ahmad, The crusader, pp. 7-12. (٣)

وقد يسرت الانتصارات الأولية للصليبيين زيارة بيت المقدس ، وحتى أولئك الذين لم يكونوا ضمن أفراد الجيش الصليبي الذي استولى على بيت المقدس أحسوا بضرورة قيامهم برحلة الحج الى القدس ، ولم يكن هناك ما يعوقهم عن ذلك . ولكن الموقف تبدل تماما حين بدأ الصليبيون يتعرضون لهجمات المسلمين الذين تمكنوا من استرداد بعض ما كان الصليبيون قد استولوا عليه ، ومن بينها بيت المقدس ، ورغم وطأة الاحباط المرير الذي أرقق الصليبيين في تلك المرحلة فقد ظل الحج يحتل جانبا هاما في وجدان المقاتل الصليبي وتفكيره ، خوفا من الفشل في الوفاء بنذره أو قسمه مما قد يعرضه للعقاب أو يعرض وراثته له اذا مات قبل ذلك (١) .

وتمدنا المصادر العربية بطائفة من الأمثلة التي توضح مدى حرص الصليبيين على رحلة الحج ولعل أكثر هذه الأمثلة دلالة ومغزى هو المثل الذي يقدمه ابن شداد (٢) فقد حدث بعد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين أن وصل الى بيت المقدس عدد كبير من الصليبيين للحج ، وفتح لهم صلاح الدين الباب في ذلك « ٠٠٠ » ونفذ معهم الحفراء يحفنونهم حتى يردونهم الى يافا « ٠٠٠ » وكان هدف السلطان « ٠٠٠ » أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسلمون شرهم ، « ٠٠٠ » ولما علم ريتشارد قلب الأسد باقبال الصليبيين على الحج ، « ٠٠٠ » صعب عليه ذلك ، وسير الى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يأذن لأحد الا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه ، وعلم الأفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا في الحج ، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة ، مقدمون أوساط وملوك متنكرون « ٠٠٠ » .

هذا المثل الذي قدمه لنا ابن شداد ، والذي تدعمه شواهد عديدة أشارت اليها المصادر العربية الأخرى (٣) ، يقطع كل سبيل أمام الشك في أهمية الحج لدى المقاتل الصليبي ، فقد أدرك المسلمون أهمية الحج عند الصليبيون مما دفع بصلاح الدين الى تسهيل تلك المهمة أمامهم حتى يعودوا الى أوروبا . الا أنه لم تكن لدى المصادر العربية فكرة واضحة

Brundage, op. cit., p. 125

(١)

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٦ .

(٣) انظر مزيدا من الامثلة في : ابن شداد ، ص ١٥٦ ، واسامة ، الاعتبار ص ٦٩ . وابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٥٠ - ص ٢٥١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧١ وابو شامة ، الروضتين ، ص ٥٢ .

عن الأبعاد القانونية والاجتماعية التي أكسبت الحج هذه الأهمية عند المقاتل الصليبي ودفعته الى سلوك سبيل الحذر والحيلة حتى يستطيع القيام برحلة الحج والعودة الى بلاده دون أن يتعرض للعقوبات ولكي يظل محتفظا بامتيازاته من ناحية ثانية . وهكذا نخلص الى أن حرص المقاتل الصليبي على الوفاء ببنده كان عنصر ضغط على نفسيته يحد من تحركاته وقدرته القتالية ويجعله أكثر حرصا في قتاله .

تبقى بعد ذلك نقطة أخيرة ، وهي أن حذر المقاتل الصليبي يمكن أن يفسر أيضا في ضوء الظروف التي أحاطت بهذا الوجود العدواني الاستيطاني في بلاد الشام . ذلك احساس المقاتل الصليبي بانتمائه الى كيان دخيل قائم في محيط من الأعداء الذين يتحينون الفرصة للاطاحة به ، جعله أكثر حذرا وحرصا . وربما كان هذا الاحساس كامنا في اللا شعور في بداية الأمر ، ولكن تصاعد المقاومة الاسلامية ثم تنظيمها بحيث انتقلت الى مرحلة الهجوم ، أفقد هذا الكيان الدخيل احساسه بالأمان . لا سيما وان الجميع قد شاركوا في مقاومة الوجود الصليبي العدواني بل ان البدو كانوا يهاجمون المعسكرات الصليبية بشكل مستمر من أجل سرقة الأسلحة والذخائر والمؤن ، وكذلك لاختطاف جنود الصليبيين (١) .

ولعل هذا السبب أيضا كان وراء اهتمام الصليبيين الشديدا بالتحصينات سواء في مدنها وقلاعهم ، أو في حصارهم وهجومهم على مدن المسلمين وحصونهم (٢) والأمثلة كثيرة ومتواترة في المصادر التاريخية العربية على مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، فقد ذكر ابن الأثير (٢) ، وابن القلانسي (٣) ، وابن شداد (٤) ، وأبو شامة (٤) ،

(١) انظر مثلا : ابن القلانسي ، دبل تاريخ دمشق ، ص ٣١٥ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، صفحات ١٠٣ - ١٤٤ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٧٦ - ١٩٠ - ٢١٣ ، الروضتين ، ص ٨٠ .

(٢) عن تفاصيل التحصينات داخل القلاع الصليبية انظر : J. Prawer, The world of the Crusaders, pp. 121-23 pp. (123-26). وعن آلات الحصار انظر المرجع نفسه .

(٣) الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٣٩ ، ص ١٨٤ .
(٤) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ، ١٦٣ ، ص ١٦٧ - ص ١٦٨ .
(٥) النوادر السلطانية ، ص ٩٠ - ٩٤ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٦٢ - ١٦٦ .
(٤) الروضتين ، ٨٩ - ص ٩٠ .

وابن العديم (١) في صفحات مؤلفاتهم طائفة من الامثلة التي توضح مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، كما تكشف من ناحية أخرى عن مدى ضخامة الأبراج التي كانوا يستخدمونها في حالات حصار المدن الاسلامية ، أو اقتحامها ، فقد كانت بعض هذه الأبراج تتألف من عدة طوابق ، كما كان بعضها يتسع لألف مقاتل .

كما أن الرحالة ابن جبير - الذي زار بلاد الشام في عصر صلاح الدين فيلاحظ اهتمام الصليبيين بتحصين مدنها ، ويقول في ملاحظة ذكية عن مدينة صور المحتلة « ٠٠٠٠ مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، وقد أعدها الفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ٠٠٠ » (٢) .

والواقع أن أية مجموعة استعمارية استيطانية تمثل أقلية عسكرية ، وتريد أن تسيطر سيادتها على أكثرية معادية ، لأبد لها من أن تتركز في مجموعة من المدن الحصينة والقلاع ، وأن تهتم بتدعيم قواتها العسكرية لكي تؤمن وجودها . وهو ما يصدق على الديان الصليبي في بلاد الشام . فقد اهتم الصليبيون بالتحصينات في مدنها ، كما أقاموا مجموعة من الحصون والقلاع رصعوا بها شبكة الطرق الرئيسية والفرعية في جميع أنحاء الشام لتؤدي دورا أشبه ما يكون بدور مراكز الشرطة أو القواعد العسكرية ، التي ربطوا بينها بوسائل الاتصال السريع ، مثل الحمام الزاجل وإشارات النيران ، لكي يوفروا لأنفسهم سبيل الانذار المبكر ، وبسهلوا الاتصالات بين أماكن الوجود الصليبي (٣) .

وقد أشار العماد الأصفهاني الى هذه الحقيقة بقوله : « ٠٠٠ وقد رتب الفرنج أفواجا على تلك الفجاج ، لا سيما أبرنس الكرك ، فانه كان حريصا على الدرك ٠٠٠ » (٤) .

وإذا كانت المصادر العربية قد لاحظت اهتمام الصليبيين بالتحصينات فان استماتة الصليبي في الدفاع عن مدنه وقلاعها لفت

(١) زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩١ - ص ٢٩٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

J. Prawer, op. cit., p. 121.

(٣)

(٤) الفتح القسري ، ص ٥٩ . وأبرنس الكرك هو

الذي تسميه المصادر العربية « أرناط » .

انتباه هذه المصادر أيضا . ويمكن تفسير هذه الاستماتة والضراوة في الدفاع في ضوء الحقيقة القائلة بأن فقدان الصليبيين للمدن والأراضي التي احتلوها في سوريا وفلسطين كان يعنى النهاية بالنسبة لهم . وتتجسد هذه الحقيقة واضحة في عبارة لأحد المؤرخين المحدثين يقول : « كان الغرب موجودا تحت سماء الشرق » (١) .

ويجد الباحث العديد من الأمثلة التي توضح مدى استماتة الصليبي في الدفاع عن مدنه وقلاعهم ففي حوادث سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥م) يذكر أسامة بن منقذ كيف ظل الصليبيون يقاتلون بضراوة في قلعه كفر طاب رغم اشتعال النيران في الحصن حتى افتحمه المسلمون (٢) . كما يقدم ابن شداد عدة ملاحظات هامة في هذا المجال مثل قوله « ٥٠٠ وقد شاهدتم ، وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عرض الجدار مكشفين ٥٠٠ » أو قوله : « ٥٠٠ ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ٥٠٠ » الى غير ذلك من الملاحظات (٣) . كما يقدم لنا الأصفهاني عددا من الأمثلة على ذلك (٤) .

ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام أن بعض نساء الصليبيين كن يشاركن في المعارك ضد المسلمين وأن بعضهن مات أثناء احتدام المعارك (٥) .

كذلك وصفت المصادر العربية المقاتل الصليبي بالغدر ونستطيع أن نجد لهذه المصادر مبررا فيما ارتكبه الصليبيون من فعال شنيعة بمذابح ضد أهالي البلاد رغم أمانهم لهم ، ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الأمثلة ، ولكننا نقتبس عبارة لابن شداد تجسد هذه الرؤية التي نظرت بها المصادر العربية الى الصليبي ، فهو يقول « ٥٠٠ فان مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة وصحبتهم غير مأمونة الغائلة ٥٠٠ » (٦) .

Prawer, op. cit., p. 83.

(١)

(٢) أسامة الاعتبارية ، ص ٧٣ - ص ٧٥ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٩١ - ص ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ١٢٠ - ١٦٧ - ٢٢٣ -

٢٢٤ - ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٤) الفتح القسى - ص ٦٥ - ١٤ - ص ١٢٩ - ص ١١٩ - ص ٢٧٢ - ص ٢٧٤ .

(٥) أسامة ، الاعتبار ، ابن شداد : النوادر - ص ١٣٠ - ١٦٧ - ١٧٨ - ١٧٩ .

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية - ص ٢٠٣ - انظر أمثلة غدر الصليبيين

صفحات ٩٧ - ٩٨ - ١٠٢ - ١٠٣ - ص ١١٧ وانظر أيضا الفتح القسى - ص ٢٨٦ .

تبقى بعد ذلك ملاحظة أخيرة للمصادر العربية على صورة المقاتل الصليبي وهي ملاحظة فرعية جسدها أسامة بن منقذ في قوله « ٠٠٠ فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ٠٠٠ » (١) ، وهنا نشير الى أن الحرب لم تمنع من قيام الصلات الحضارية والانسانية بين المتحاربين فقد ضربت لنا المصادر العربية الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك . بل ان بعض المؤرخين يصف الوافدين الجدد من الصليبيين بكلمة « الغرباء » (٢) . بيد أن مسألة التفاعلات الحضارية بين الشرق والغرب مسألة لا يمكن أن تبحث في مثل هذه الحالة ، وانما تستحق أن نفرد لها صفحات بحث مستقل .

والخلاصة أن الصورة التي رسمتها المصادر التاريخية العربية للمقاتل الصليبي خلال فترة الحملات الثلاث الاولى ، صورة تبدو متناقضة الملامح للوهلة الاولى ، فهو مقاتل يتحلى بالشجاعة ولكنه في الوقت نفسه مبالغ في الحذر . وعلى الرغم من تدينه العاطفي ، فانه يوصم بالوحشية والقسوة والغدر .

بيد أن النظرة الفاحصة المتأنية تكشف أن هذا التناقض البادى في صورة المقاتل الصليبي تناقض ظاهري وهمي تماما ، فالشجاعة صفة أساسية في الفارس الصليبي ، ولكنها في الوقت نفسه فعل محبوب لا يهمل الخطر ، كما أن الحذر والاهتمام بالحصون يتوافقان تماما مع طبيعة الوجود العدواني الاستيطاني للصليبيين في بلاد الشام ، وما يلقيان من مقاومة اسلامية مستمرة . أما تدين المقاتل الصليبي فهو تدين عاطفي غير عقلاني ، خلقتة الدعاية البابوية واشاعات الرؤى والاحلام التي واكبت الحركة الصليبية ، كما أن هذا التدين تشوبه الحرافات ويحكمه التعصب الأعمى والحقده على المسلمين . ومن ثم لم يجد الصليبي بالمرّة بين تدينه وغدره بأعدائه ، بل أنه رأى في ذلك خدمة للصليب وتنفيذا لإرادة الرب الذي أراد لهذه الحرب أن تكون .

(١) أسامة الاعتبار -- ص ١٣٤ . ويقصد بكلمة « تبلدوا » أنهم تعودوا على نمط الحياة الاسلامية في بلاد الشام .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري) . ت ٦٣٠ هـ :
- « الكامل في التاريخ » ج ١٠ ، ج ١١ .
- ٢ - ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي . ت ٦١٤) :
- « رحلة ابن جبير » تحقيق د . حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥)
- ٣ - ابن شداد (بهاء الدين بن شداد . ت ٦٣٢ هـ) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية «
تحقيق د . جمال الدين الشيال (الدار المصرية للتأليف
والترجمة ١٩٦٤) .
- ٤ - أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل
ابن ابراهيم المقدس الشافعي ت ٦٦٥ هـ) :
- « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية »
(القاهرة ١٢٨٧ هـ) .
- ٥ - أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى
الشيزرى (ت ٥٨٤ هـ) .
- « كتاب الاعتبار » تحقيق فيليب حتى (برنستون ١٩٣٠) .
- ٦ - ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن العديم ت ٦٦٠ هـ) .
- « زبدة الحلب من تاريخ حلب » الجزء الثانى
تحقيق سامى الدهان (دمشق ١٩٥٤) .
- ٧ - ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي . ت ٥٥٥ هـ) :
« ذيل تاريخ دمشق »
(بيروت ١٩٠٨) .

- ٨ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم واصل . ت ٦٩٧ هـ)
- « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ج ١ - ج ٣ .
تحقيق د . جمال الدين الشال (القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠)
- ٩ - جوزيف نسيم (دكتور) :
- « العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى »
(دار المعارف ١٩٦٣)
- ١٠ - سعيد عاشور (دكتور) :
- « الحرب الصليبية » جزآن (الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٧١)
- ١١ - العماد الأصفهاني (صفى الدين أبو الفرج محمد بن حامد
ابن محمد بن عبد الله القرشى الأصفهاني . ت ٥٩٧ هـ) .
- « الفتح القسى فى الفتح القدسى »
تحقيق محمد محمود صبيح (القاهرة ١٩٦٥)
- ١٢ - محمد مصطفى زيادة (دكتور) :
- « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة »
(القاهرة ١٩٦١)

13. Brundage (James), Medieval canon law and the Crusaders, The university of Wisconsin press, Madison 1969.
14. Barraclough (Geoffrey) :
— The Medieval papacy, Thomas and Hudson, London 1968.
15. Cantor (Norman F.) :
— The Medieval history, Macmillan, New York, 1969.
— The Medieval World., Macmillan, 1968.
16. Joinville and Villehardouin :
Chronicles of the Crusades, traned, and introduced by
M.R.B. Shaw, Penguin Classics 1973.
17. Jonathan Riley-Smith :
— The Feudal nobility and the Kingdom of Jerusalem,
1174-1277, Macmillan, London 1973.

18. Fulcher of Chartres :
 - The chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials of the First Crusade, transl. with an introduction by Edward Peters, Pennsylvania 1971.
19. Morris Bishop :
 - The Penguin book of the Middle Ages.
20. Mahammed K. H. Ahmed :
 - «The Crusader in the memoirs of Usama Ibn Munqidh» A paper delivered at the American Academy of Religion, Washington.
21. Norman (A.V.B.).
 - The Medieval Soldier, New York 1971.
22. Painter Sidney.
 - A history of the Middle Ages, Macmillan, London 1953.
23. Prawer (Joshua) :
 - The world of the Crusaders, New York 1972.
24. Runciman (Steven) :
 - A History of the Crusades, Vol. 1, New York 1964.
25. Smail (R.C.) :
 - Crusading Warfare 1097-1193, Cambridge 1967.

